أما غير المؤمنين فيقول عنهم الحق :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الطور)

إن رجوع غير المؤمنين يكون رجوعاً قسرياً لا مرغوباً فيه . والحق يقول عن هذا اليوم : « ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » . وبعد ذلك يقنن الحق سبحانه للدَّيْن فيقول سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ
مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ
أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ

تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

إنها أطول آية فى آيات القرآن ويستهلها الله بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا الاستهلال كما نعرف يوحى بأن ما يأتى بعد هذا الاستهلال من حكم ، يكون الإيمان هو حيثية ذلك الحكم ، فما دمت قد آمنت بالله فأنت تطبق ما كلفك به ؛ لأن الله لم يكلف كافراً ، فالإنسان ـ كما قلنا سابقاً ـ حر فى أن يُقبل على الإيمان بالله أو لا يُقبل .

فإن أقبل الإنسان بالإيمان فليستقبل كل حكم من الله بالتزام . ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الإنسان حين يكون مريضاً ، هو حر فى أن يذهب إلى الطبيب أو لا يذهب ، ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب ويكتب له الدواء فالإنسان لا يسأل الطبيب وهو مخلوق مثله : لماذا كتبت هذه العقاقير؟.

إن الطبيب يمكن أن يرد : إنك كنت حرا فى أن تأتى إلىّ أو لا تأتى ، لكن ما دمت قد جئت إلى فاسمع الكلام ونفذه . والطبيب لا يشرح التفاعلات والمعادلات ، لا ، إن الطبيب يشخص المرض ، ويكتب الدواء . فما بالنا إذا أقبلنا على الخالق الأعلى بالإيمان ؟

إننا ننفذ أوامره سبحانه ، والله لا يأمر المؤمن إلا عن حكمة ، وقد تتجلى للمؤمن بعد ذلك آثار الحكمة ويزداد المؤمن ثقة فى إيمانه بالله . يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » وعندما نتأمل قول الحق : «تداينتم» نجد فيها « دَيْن » ، وهناك « دِين » ، ومن معنى الدِّين الجزاء ، ومن معنى الدِّين

منهج السماء ، وأما الدَّيْن فهو الاقتراض إلى موعد يسدد فيه . هكذا نجد ثلاثة معان واضحة : الدِّين : وهو يوم الجزاء ، والدين وهو المنهج السماوى،والدَّيْن : هو المال المقترض .

والله يريد من قوله : « تداينتم بدين » أن يزيل اللبس فى معنيين ، ويبقى معنى واحداً وهو الاقتراض فقال : « بِدَيْن » فالتفاعل هنا فى مسألة الدَّيْن لا فى الجزاء ولا فى المنهج ، والحق يحدد الدَّيْن بأجل مُسمّى . وقد أراد الله بكلمة « مُسمّى » مزيداً من التحديد ، فهناك فرق بين أجل لزمن ، وبين أجل لحدث يحدث ، فإذا قلت : الأجل عندى مقدم الحجيج . فهذا حدث فى زمن ، ومقدم الحجيج لا يضمنه أحد ، فقد تتأخر الطائرة ، أو يصاب بعض من الحجيج بمرض فيتم حجز الباقين فى الحجر الصحى .

أما إذا قلت : الأجل عندى شهران أو ثلاثة أشهر فهذا يعنى أن الأجل هو الزمن نفسه ، لذلك لا يصح أن يؤجل أحد دينه إلى شىء يحدث فى الزمن ؛ لأنه من الجائز ألا يحدث ذلك الشىء فى هذاالزمن . إن التداين بديْن إلى أجل مُسمى يقتضى تحديد الزمن ، والحق يوضح لنا : «إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » وكلمة « فاكتبوه » هى رفع لحرج الأحباء من الأحباء .

إنه تشريع سماوى ، فلا تأخذ أحد الأريحية ، فيقول لصاحبه : « نحن أصحاب » ، إنه تشريع سماوى يقول لك : اكتب الديْن ، ولا تقل : « نحن أصدقاء » فقد يموت واحد منكما فإن لم تكتب الديْن حرجاً فماذا يفعل الأبناء،أو الأرامل ، أو الورثة ؟ .

إذن فإلزام الحق بكتابة الديْن هو تنفيذ لأمر من الله يحقق رفع الحرج بين الأحباء . ويظن كثير من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن . لا ، إن المقصود بذلك والمهم هو حماية المدين ، لأن المدين إن علم أن الديْن عليه موثق حرص أن يعمل ليؤدى ديْنه ، أما إذا كان الديْن غير موثق فمن الجائز أن يكسل عن العمل وعن سداد الديْن . وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضن المجتمع الغنى على المجتمع الفقير فلا يقرضه ؛ ويأخذون عجز ذلك الإنسان عن السداد ذريعة لذلك ، ويقع

هذا الإنسان الذى لم يؤد دينه فى دائرة تحمل الوزر المضاعف ، لأنه ضيّق باب القرض الحسن .

إن الله يريد أن يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند من لا يملك ، لأن من يملك يستطيع أن يسيِّر حياته ، أما من لا يملك فهو المحتاج . ولذلك فهناك مثل فى الريف المصرى يقول : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله . إنه يقترض ويسدد ، لذلك يثق فيه كل الناس ، ويرونه أميناً ويرونه مُجداً ، ويرونه مخلصاً ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى ، فكل المال يصبح ماله .

إذن فالله ـ سبحانه ـ بكتابة الدَّيْن يريد حماية حركة الحياة عند غير الواجد ؛ لأن الواجد فى غير حاجة إلى القرض . لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه : « إذا تداينتم بديْن إلى أجل مسمى فاكتبوه » . ومن الذى يكتب الديْن ؟.

انظر الدقة : لا أنت أيها الدائن الذى تكتب ، ولا أنت أيها المدين ، ولكن لابد أن يأتى كاتب غير الاثنين ، فلا مصلحة لهذا الثالث من عملية الدين « وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » . وفى ذلك إيضاح بأن الإنسان الذى يعرف الكتابة إن طُلب منه أن يكتب ديْناً ألا يمتنع عن ذلك ، لماذا ؟ لأن الآية ـ آية الديْن ـ قد نزلت وكانت الكتابة عند العرب قليلة ، كان هناك عدد قليل فقط هم الذين يعرفون الكتابة ، فكان هناك طلب شديد على من يعرف الكتابة .

ولكن إن لم يُطْلَب أحد من الذين يعرفون الكتابة أن يكتب الديْن فماذا يفعل ؟. إن الحق يأمره بأن يتطوع ، وفى ذلك يأتى الأمر الواضح « فليكتب » ؛ لأن الإنسان إذا ما كان هناك أمر يقتضى منه أن يعمل ، والظرف لا يحتمل تجربة ، فالشرع يلزمه أن ينتدب نفسه للعمل .

هب أنكم فى زورق وبعد ذلك جاءت عاصفة ، وأغرقت الذى يمسك بدفة الزورق ، أو هو غير قادر على إدارة الدفة ، هنا يجب أن يتقدم من يعرف ليدير الدفة ، إنه ينتدب نفسه للعمل ، فلا مجال للتجربة . والحق سبحانه وتعالى حين عرض قضية الجدب فى قصة سيدنا يوسف قال :

﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾
ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وقال سيدنا يوسف :

﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إن المسألة جدب فلا تحتمل التجربة ، وهو كفء لهذه المهمة ، يملك موهبة الحفظ والعلم ، فهذب نفسه للعمل . كذلك هنا « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » إذا طُلب منه وإن لم يطلب منه وتعين « فليكتب » .

وهذه علة الأمرين الاثنين ، ومادامت الكتابة للتوثيق فى الدَّيْن ؛ فمن الضعيف ؟ إنه المدين ، والكتابة حجة عليه للدائن ، لذلك يحدد الله الذى يملل : الذى عليه الديْن ، أى يملى الصيغة التى تكون حجة عليه « وليملل الذى عليه الحق » ولماذا لا يملى الدائن ؟ لأن المدين عادة فى مركز الضعف ، فلعل الدائن عندما تأتى لحظة كتابة ميعاد السداد فقد يقلل هذا الميعاد ، وقد يخجل المدين أن يتكلم ويصمت ؛ لأنه فى مركز الضعف . ويختار الله الذى فى مركز الضعف ليملى صيغة الديْن ، يملى على راحته ، ويضمن ألا يُؤخذ بسيف الحاجة فى أى موضع من المواضع .

لكن ماذا نفعل عندما يكون الذى عليه الديْن سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو ؟ إن الحق يضع القواعد « فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليّه بالعدل » والسفيه هو البالغ مبلغ الرجال إلا أنه لا يمتلك أهلية التصرف . والضعيف هو الذى لا يملك القدرة التى تُبلغه أن يكون ناضجا النضج العقلى للتعامل ، كأن يكون طفلا صغيرا ، أو شيخا بلغ من الكبر حتى صار لا يعلم من بعد علمه شيئا ، أو لا يستطيع أن يمل . أى أخرس فيقوم بالإملاء الولى أو القيّم أو الوصىّ .

ويأتى التوثيق الزائد : بقوله ـ تعالى ـ : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

ولننظر إلى الدقة فى التوثيق عندما يقول الحق : « واستشهدوا » نستشهد ونكتب ، لأنه سبحانه يريد بهذا التوثيق أن يؤمّن الحياة الاقتصادية عند غير الواجد ؛ لأن الحاجة عندما تكون مؤمَّنة عند غير الواجد فالدولاب يمشى وتسير حركة الحياة الاقتصادية ؛ لأن الواجد هو القليل ، وغير الواجد هو الكثير ، فكل فكر جاد ومفيد يحتاج إلى مائة إنسان ينفذون التخطيط .

إن الجيب الواحد الذى يصرف يحتاج إلى مائة لينفذوا ، ولهذا تكون الجمهرة من الذين لا يجدون ، وذلك حتى يسير نظام الحياة ؛ لأن الله لا يريد أن يكون نظام الحياة تفضلا من الخلق على الخلق ، إنما يريد الله نظام الحياة نظاما ضروريا ؛ فالعامل الذى لا يعول أسرة قد لا يخرج إلى العمل ، لذلك فالحق يربط خروج العامل بحاجته . إنه يحتاج إلى الطعام ورعاية نفسه وأسرته فيخرج اضطرارا إلى العمل ، وبتكرار الأمر يعشق عمله ، وحين يعشق العمل فهو يحب العمل فى ذاته .

وبذلك ينتقل من الحاجة إلى العمل ، إلى حب العمل فى ذاته ، وإذا ما أحب العمل فى ذاته ، فعجلة الحياة تسير . والحق سبحانه حين يحدد الشهود بهذا القول : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » .

ولماذا قال الحق : « شهيدين » ولم يقل « شاهدان » ؟ لأن مطلق شاهد قد يكون زوراً ، لذلك جاء الحق بصيغة المبالغة . كأنه شاهد عرفه الناس بعدالة الشهادة حتى صار شهيدا . إنه إنسان تكررت منه الشهادة العادلة ؛ واستأمنه الناس على ذلك ، وهذا دليل على أنه شهيد . وإن لم يكن هناك شهيدان من الرجال فالحق يحدد لنا « فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » .

إن الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا على قدر طاقتنا أى من نرضى نحن عنهم ، وعلل الحق مجىء المرأتين فى مقابل رجل بما يلى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » ؛ لأن الشهادة هى احتكاك بمجتمع لتشهد فيه وتعرف ما يحدث . والمرأة

بعيدة عن كل ذلك غالبا .

أن الأصل فى المرأة ألا علاقة لها بمثل هذه الأعمال ، وليس لها شأن بهذه العمليات ، فإذا ما اضطرت الأمور إلى شهادة المرأة فلتكن الشهادة لرجل وامرأتين ؛ لأن الأصل فى فكر المرأة أنه غير مشغول بالمجتمع الاقتصادى الذى يحيط بها ، فقد تضل أو تنسى إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، وتتدارس كلتاهما هذا الموقف ، لأنه ليس من واجب المرأة الاحتكاك بجمهرة الناس وبخاصة ما يتصل بالأعمال

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا » فكما قال الحق عن الكاتب ألا يمتنع عن توثيق الدّين ، كذلك الشهادة على هذا الدّين . وكيف تكون الشهادة ، هل هى فى الأداء أو التحمل ؟ إن هنا مرحلتين : مرحلة تحمل ، ومرحلة أداء .

وعندما نطلب من واحد قائلين : تعال اشهد على هذا الدّين . فليس له أن يمتنع ، وهذا هو التحمل . وبعدما وثقنا الدّين ، وسنطلب هذا الشاهد أمام القاضى ، والوقوف أمام القاضى هو الأداء . وهكذا لا يأبى الشهداء إذا ما دعوا تحملا أو أداءً .

لكن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن كل نفس بشرية لها مجال حركتها فى الوجود ، ويجب ألا تطغى حركة حدث على حدث ، فالشاهد حين يُستدعى - بضم الياء - ليتحمل أولا أو ليؤدى ثانيا ينبغى ألاّ تتعطل مصالحه ؛ إن مصالحه ستتعطل ؛ لأنه عادل ، ولأنه شهيد ، لذلك يضع الله لذلك الأمر حداً فيقول : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » .

إذن فالشهادة هنا تتطلب أن نحترم ظروف الشاهد . فإن كان عند الشاهد عمل أو امتحان أو صفقة أو غير ذلك ، فلنا أن نقول للشاهد : إما أن تتعين فى التحمل حيث لا يوجد من يوثق به ويطمأن إليه أما فى الأداء فأنت مضطر .

إن الشاهد يمكنه أن يذهب إلى أمره الضرورى الذى يجب أن يفعله ، فلا يطغى حدث على حدث ، لذلك علينا أن نبحث عن شاهد له قدرة السيطرة على عمله بدرجة ما . وإن لم نجد غيره ، فماذا يكون الموقف ؟

. لقد قال الحق : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » إذن فعلينا أن نبحث له عن « جُعْل » يعوض عليه ما فاته ، فلا نلزمه أن يعطل عمله وإلا كانت عدالته وبالاً عليه ، لأن كل إنسان يُطلب للشهادة تتعطل أعماله ومصالحه . والله لا يحمى الدائن والمدين ليضر الكاتب أو الشهيد .

وقوله الحق لكلمة : « يضار » فمن الممكن أن تأتى الكلمة على وجهين فى اللغة . فمرة تأتى « يضار » بمعنى أن الضرر يأتى من الكاتب أو الشهيد ، ومرة أخرى تأتى كلمة « يضار » بمعنى أنّ الضرر يقع على الكاتب أو الشهيد . فاللفظ واحد ، ولكن حالة اللفظ بين الإدغام الذى هو عليه حسب قواعد اللغة وبين فكه هى التى تُبيّنُ لنا اتجاه المعنى . فإن قلنا : « ولا يضارٌ كاتب ولا شهيد » - بكسر الراء - ، فالمعنى فى هذه الحالة هو أن يقع الضرر من الكاتب فيكتب غير الحق ، أو أن يقع الضرر من الشهيد فيشهد بغير العدل .

وإن قلنا : « ولا يضارٌ كاتب ولا شهيد » - بفتح الراء - فالمنهى عنه هو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد من الذين تؤدى الكتابة غرضا لهم ، وتؤدى الشهادة واجبا بالنسبة لهم ؛ ليضمن الدائن دَيْنه ، وليستوثق أن أداءه محتم .

والكاتب والشهيد شخصان لهما فى الحياة حركة ، ولكل منهما عمل يقوم به ليؤدى مطلوبات الحياة ، فإذا عُلِمَ - بضم العين وكسر اللام وفتح الميم - أنه كاتب أو شهد بأنه عادل،عند ذلك يتم استدعاؤه فى كل وقتٍ من أصحاب المصلحة فى المداينة ، وربّما تعطلت مصالح الكاتب أو الشهيد .

ويريد الله أن يضمن لذلك الكاتب أو الشهيد ما يبقى على مصلحته . ولذلك أخذت القوانين الوضعية من القرآن الكريم هذا المبدأ ، فهى إن استدعت شاهدا من مكان ليشهد فى قضية فإنها تقوم له بالنفقة ذهابا وبالنفقة إيابا ، وإن اقتضى الأمر أن يبيت فله حق المبيت وذلك حتى لا يضار ، وهو يؤدى الشهادة ، وحتى لا يتعطل الشاهد عن عمله أو أن يصرف من جيبه .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أيضا أن يضمن مصالح الجميع لا مصلحة جماعة على حساب جماعة .

ويقول الحق فى هذه « المضارة » : « وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم » أى وإن تفعلوا الضرر من هذا أو من ذاك فإنه فسوق بكم ، إنه سبحانه يحذر أن يقع الضرر من الكاتب أو الشهيد ، أو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد . ففعل الضرر فسوق ، أى خروج عن الطاعة .

والأصل فى « الفسق » هو خروج الرطبة من قشرتها ، فالبلح حين يرطب تكون القشرة قد خلعت عن الأصل من البلحة ، فتخرج الثمرة من القشرة فيقال : « فسقت الرطبة » . ومنها أخذ معنى الفسوق وهو الخروج عن طاعة الله فى كل ما أمر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : « واتقوا الله » وعلمنا من قبل معنى كلمة « التقوى » حين يقول الله : « واتقوا الله » أو يقول سبحانه : « واتقوا النار » « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » ، وكل هذه المعانى مبنية على الوقاية من صفات جلال الله ، وجبروته ، وقهره ، وإذا قلنا : « اتقوا النار » فالنار من جنود صفات القهر لله ، فـ « اتقوا الله » هى بعينها « اتقوا النار » هى بعينها « اتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » .

ويقول الحق سبحانه : « واتقوا الله ويعلمكم الله » . وهنا مبدأ إيمانى يجب أن نأخذه فى كل تكليف من الله ؛ فإن التكاليف إن جاءت من بشر لبشر ، فأنت لا تنفذ التكليف من البشر إلا إن أقنعك بحكمته وعلته ؛ لأن التكليف يأتى من مساوٍ لك ، ولا توجد عقلية أكبر من عقلية ، وقد تقول لمن يكلفك : ولماذا أكون تبعا لك وأنت لا تكون تبعا لى ؟ إنك إذا أردت أن تكلفنى بأمر من الأمور وأنت مساو لى فى الإنسانية والبشرية وعدم العصمة فلا بد أن تقنعنى بحكمة التكليف .

أما إن كان التكليف من أعلى وهو الحق سبحانه وهو الله الذى آمنا بقدرته وعلمه وحكمته وتنزهه عن الغرض العائد عليه فالمؤمن فى هذه الحالة يأخذ الأمر قبل أن

يبحث فى الحكمة ؛ لأن الحكمة فى هذا الأمر أنه صادر من الله ، وحين ينفذ المؤمن التكليف الصادر من الله فسيعلم سر هذه الحكمة فيما بعد ؛ فأسرار الحكم عند الله تأتى للمؤمن بعد أن يقبل على تنفيذ التكاليف الإيمانية .

إن الحق سبحانه ـ على سبيل المثال ـ لا يقنع العبد بأسرار الصوم ، ولكن إن صام العبد المؤمن كما قال الله وعند ممارسة المؤمن لعبادة الصوم سيجد أثر حكمة الصوم فى نفسه بما لا يمكن إقناعه به أولا . إن المؤمن حين يفعل التكليف الإيمانى فإن الله يعلمه حكمة التكليف. ولنا فى قوله سبحانه الدليل الواضح :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن الله سبحانه يَعِدُ عباده المؤمنين أنهم عندما يتقونه فإنه يجعل لهم دلائل تبين لهم الحق من الباطل ويستر عنهم السيئات ويغفر لهم . لماذا ؟ لأن الله الذى يعلمنا هو الحق سبحانه العليم بكل شىء . وعلم الله ذاتى ، أما علم الإنسان فقد يكون أثرا من ضغط الأحداث عليه فيفكر الإنسان فى تقنين شىء يخرجه مما يكون فيه من شر ، ولكن علم العليم الأعلى سابق على ذلك لأنه علم ذاتى .

وفيما سبق علمنا أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى الدين هذه العناية ليضمن للحياة حركتها الطاهرة ، حركتها السليمة ؛ لأن المعدم لا وسيلة له فى حركة الحياة إلا أمور ثلاثة ، الأمر الأول : الرِّفْدُ أى عطاء تطوعى يستعين به على حركة الحياة . والأمر الثانى : الفرض الذى فرضه الله فى الزكاة . والأمر الثالث : القرض الذى شرعه .

فعندما لا يجد المؤمن المعدم الرفد أو الفرض فماذا يكون بعد ذلك ؟ إنه القرض . إذن فالقرض هو المفزع الثالث للحركة الاقتصادية عند المعدمين . وعرفنا أن القرض عند الله يفوق ويعلو الصدقة فى الثواب ؛ لأن الصدقة حين تتصدق بها تكون قد خرجت من نفسك من أول الأمر فلا مشغولية لذهنك بعد ذلك ، ولكن القرض

نفسك تكون متعلقة به ؛ لأنك لا تزال مالكاً له ، وكلما صبرت عليه أخذت ثواباً من الله على كل صبرة تصبرها على المدين .

وعرفنا كذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد استوثق لعملية الدَّين استيثاقا يجب أن نفهمه من وجهيه ، الوجه الأول : أنه يحفظ بذلك ثمرة حركة المتحرك فى الحياة ، وهى أن يتمول ، أى أن يكون عنده مال ؛ فإن لم نَحْم له ثمرة حركته فى الحياة استهان بالحركة ، وإذا استهان بالحركة تعطلت مصالح كثيرة ؛ لأن حركة المتحرك فى الحياة تنفع بشراً كثيرين قصد المتحرك ذلك أو لم يقصد ، وضربنا المثل بمن يريد بناء عمارة ، وعنده مال ، فيسلط الله عليه خاطراً من خواطره مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

فيقول : ولماذا أكنز المال ؟ ولماذا لا أبنى عمارة أستفيد من إيجارها ؟ . وبذلك لا يتناقص المال بل يزيد . وليس فى بال ذلك الرجل أن ينفع أحداً . إن باله مشغول بأن ينفع نفسه ، لكن حركته وإن لم يقصد نفعَ الغير ستنفع الغير . فالذى يحفر الأرض سيأخذ أجراً لذلك ، والذى يضرب الطوب سيأخذ أجراً لذلك ، وكل من يشترك فى عمل لإقامة هذا البنيان من بناء أو إدخال كهرباء أو توصيل مياه أو تحسين وتجميل كل واحد من هؤلاء سيأخذ أجره ، وبذلك يستفيد الجميع وإن لم يقصد المتحرك فى الحياة .

إذن فالحق يريد أن يحمى حركة المتحرك فى الحياة لأنه لو لم يحم الله ثمرة حركته فى الحياة ؛ لاكتفى المتحرك فى حركته بما يقوته ويقوت من يعول ، ويبقى الضعيف فى الحياة ؛ فمن ذا يعوله ؟ . إذن لابد أن نضمن للمتحرك ماله حتى يتشجع على الحركة إن الله الذى وهب الناس أرزاقهم ، عندما يطلب من القوى المتحرك أن يعطى أخاه الضعيف المحتاج قرضاً ، لا يقول الله : « اقرض المحتاج » ، ولكنه جل وعلا يقول :

﴿ مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

إن الله سبحانه وتعالى قد احترم حركة الإنسان المتحرك فى الحياة وجعل المال مال المتحرك ، فلا يقول الله للمتحرك : اعط المحتاج من المال الذى وهبتك إياه . لا ، إنه مال المتحرك ، ويقول الله للمتحرك : اقرضنى لأن أخاك فى حاجة إليه ، كما نقول للتقريب لا للتشبيه ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تأخذ من حصالة ابنك لمصلحة أخيه ، وتعد ابنك الذى أخذت من حصالته أنك سوف تعطيه الكثير . والمال الذى أخذته من حصالة ابنك قرضا أنت الذى أعطيته له أولا .

إذن فالله يريد أن يحمى حركة الحياة ، وإن لم نحم حركة الحياة ، لا يكون كل إنسان آمناً على ثمرة حركته ، فستفسد الحياة كلها ويستشرى الضغن والحقد ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦ إِن يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧ ﴾

(سورة محمد)

وساعة يتفشى الضغن فى المجتمع فلا فائدة فى هذا المجتمع أبداً . إذن فالحق حين يوثق الديْن يريد أن يحمى حركة المتحرك ؛ لأن الناس تختلف فيما بينها فى الحركات الطموحية . ولا توجد الحركات الطموحية فى كل الناس ، بل توجد فى بعضهم ، فلنستغل حركة الطموح عند بعض الناس ؛ لأنهم سيفيدون المجتمع : قصدوا ذلك أو لم يقصدوا .

وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يحمى أيضاً الإنسان من نفسه ؛ لأنه إن علم أن الديْن الذى عليه موثق ، ولا وسيلة لإنكاره حاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليؤديه . وحين يتحرك الإنسان ليؤدى عن نفسه الديْن فإن ذلك يزيد الحركة فى الحياة ، ويزداد النفع .

وهكذا نرى أن الله أراد بالتوثيق للديْن حماية المدين من نفسه ؛ لأن المدين قد تطرأ عليه ظروف فيماطل ، وإذا ما ماطل فلن تكون الخسارة فيه وحده ، ولكنه

سيصبح أسوة عند جميع الناس وسيقول كل من عنده مال : لا أعطى أحداً شيئاً لأن فلاناً الغنى مثلى قد أعطى فلاناً الفقير وماطله وأكله ، وعند ذلك تتوقف حركة الحياة ولكن إذا كان الدين موثقا ومكتوبا فإن المدين يكون حريصا على أدائه . والله يريد أن يضمن لحركة الحياة دواماً واستمراراً شريفاً نظيفاً . ولذلك نجد فى آية الدَّين أن كلمة « الكتابة » ومادتها « الكاف والتاء والباء » تتكرر أكثر من مرة بل مرات كثيرة .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهذا التكرار فى هذه الآية لعملية الكتابة يؤصل العلاقة بين الناس ؛ فالكتابة هى عمدة التوثيق ، وهى التى لا تغش ، لأنك إن سجلت شيئاً على ورقة فلن تأتى الورقة لتنكر ما كتبته أنت فيها ، ولكن الأمر فى الشهادة قد يختلف ، فمن الجائز أن يخضع الشاهد لتأثير ما فينكر الحقيقة ، ولذلك فإن الحق يعطينا قضية إيمانية جديدة حين يقول : « أن يكتب كما علمه الله » أى أن يكتب الكاتب على وفق ما علمه الله ،

فكأنه لابد أن يكون فقيهاً عالماً بأمور الكتابة ، أو « كما علمه الله » أى أنّ الله أحسن إليه وعلمه الكتابة دون غيره ، فكما أحسن الله إليه بتعلم الكتابة فليحسن ولْيُعَدّ أثر الكتابة إلى الغير .

وليست المسألة مسألة كتابة فقط ، إنما ذلك يشمل ويضم كل شىء أو موهبة خص الله بها فرداً من الناس من مواهب الله على خلقه ؛ فالمؤمن هو من يعمل على أن يعدى أثر النعمة والموهبة إلى الغير . وعليك أن تعدى أثر مواهب الغير إليك فتنفع بها سواك ، وبذلك يشيع الخير ويعم النفع لأنك إن أخذت موهبة فستأخذ موهبة واحدة تكفيك فى زاوية واحدة من زوايا حياتك ، وعندما تعديها للجميع وتنقلها إليهم فيعدى الجميع مواهبهم المجتمعة لمصلحتك ، فأيها أكسب ؟

حين تعدى وتنقل موهبتك إلى الناس ، تكون أنت الأكثر كسباً ؛ لأن الجميع يعدون وينقلون مواهبهم إليك . وإذا أتقنت صنعتك للناس فالصنعة التى فى يدك واحدة ، وعندما تتقنها فإن الله يسلط جنود الخواطر على كل من يصنع لك شيئاً أن يتقنه ، كما أتقنت أنت لسواك . ويعد ذلك يعلمنا الحق سبحانه شدة الحرص على التوثيق فيقول :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ
ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ
ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

والسفر كما نعلم هو خروج عن رتابة الحياة فى الموطن ، ورتابة الحياة فى الموطن

تجعل الإنسان يعلم تمام العلم مقومات حياته ، لكن السفر يخرج الإنسان عن رتابة الحياة فلا يتمكن من كثير من الأشياء التي يتمكن بها في الإقامة . فهب أنك مسافر ، واضطررت إلى أن تستدين ، ولا يوجد كاتب ولا يوجد شهيد ، فماذا يكون الموقف ؟

ها هو ذا الحق يوضح لك : « فرهان مقبوضة » . إذن فلم يترك الله مسألة الدين حتى في السفر فلم يشرع فقط للإقامة ولكن الحق قد شرع أيضا للسفر « فرهان مقبوضة » ، وهكذا الكتابة ، والشهادة في الإقامة والرهان المقبوضة في السفر هدفها حماية الإنسان أمام ظروف ضغط المجتمع .

ولكن هل يمنع الحق سبحانه وتعالى طموحية الإيثار ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى رجولية التعامل ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى المروءات من أن تتغلغل في الناس ؟ لا . إنه الحق سبحانه يقول : « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته » ، إنه الطموح الإيماني ، لم يَسُدّ الله مسألة المروءة والإيثار في التعامل . إن كتابة الدين والإشهاد والرهن ليس إلزاماً لأن الله قال : « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته » .

وأيضا قد نفهم أن الذي اؤتمن هو المدين ، وهنا نقول : لا ، إن الأمر مختلف ، فهنا رِهان ، وذلك معناه وجود مسألتين ، المسألة الأولى هي « الدين » ، والمسألة الثانية هي « الرهان المقبوضة » وهي مقابل الدين . فواحد مأمون على الرهن في يده . والآخر مأمون على الدين . ولهذا يكون القول الحكيم مقصودا به من بيده الرهن ، ومن بيده الدّين ومعنى ذلك أن يؤدي مَن معه الرهن أمانته ، وأن يؤدي الآخر دينه . وحين نرتقي إلى هذا المستوى في التعامل فإن وازع الإنسان ليس في التوثيق الخارج عن ذات النفس ، ولكنه التوثيق الإيماني بالنفس ، ولكن أنضمن أن يوجد التوثيق الإيماني عند كل الناس ؟ .

أنضمن الظروف ؟ . نحن لا نضمن الظروف ، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمل والأخذ ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء فقد يأتي واحد ويقول لك : إن عندي مائة جنيه وخذها أمانة عندك .

ومعنى « أمانة » أنه لا يوجد صك ، ولا شهود ، وتكون الذمة هى الحكم ، فإن شئت أقررت بهذه الجنيهات المائة ، وإن شئت أنكرتها . إن الرجل الذى يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جنيه فى الذمة الإيمانية ، ومن الجائز أن تقول له لحظة أن يفعل معك ذلك : نعم سأحتفظ لك بالمائة جنيه بمنتهى الأمانة . وتكون نيتك أن تؤديها له ساعة أن يطلبها ، ولكنك لا تضمن ظروف الحياة بالنسبة لك ، وأنت كإنسان من الأغيار . ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة ضغطا يجعلك تماطل معه فى أداء الأمانة ، أو يجعلك تنكرها ، فتقول لمن ائتمنك :

ابعد عنى ؛ أنا لا أملك نفسى فى وقت الأداء ، وإن ملكت نفسى وقت التحمل . والأمانة هى القضية العامة فى الكون ، وإن كانت خاصة الآن بالنسبة للآية الكريمة التى نحن بصددها والحق ـ سبحانه ـ يعرضها بعمومها على الكون كله فيقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن الكون كله أشفق على نفسه من تحمل الأمانة وهذا يعنى أن الأمانة سوف تكون عرضة للتصرف والاختيار ، ولا كائن فى الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء . لقد أعلنت الكائنات قولها فأبين تحمُّل الأمانة وكأنها قالت : إنّا يا ربنا نريد أن نكون مسخرين مقهورين لا اختيار لنا ؛ ولذلك نجد الكون كله يؤدى مهمته كما أرادها الله ، ماعدا الإنسان ، أى أنه الذى قبل بما له من عقل وتفكير أن يتحمل أمانة الاختيار ، وبلسان حاله أو بلسان مقاله قال : إننى قادر على تحمل الأمانة ؛ لأنى أستطيع الاختيار بين البدائل .

وهنا نُذكِّر الإنسان : إنك قد تكون قوياً لحظة التحمل ، ولكن ماذا عن حالك وقت الأداء ؟ لذلك قال الله عن الإنسان : « وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » لقد ظلم الإنسان نفسه حيث حمل الأمانة ولم يف بها فلذلك فهو ظلوم . وهو جهول لأنه قدّر وقت التحمل ، ولم يقدّر وقت الأداء ، أو ضمنها ثم خاس وخالف ما عاهد نفسه على أدائها .

إذن فالإنسان وإن كان واثقاً أنه سيؤدى الأمانة إلّا أنه عرضة للأغيار ، لذلك قال الحق سبحانه : « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله » فالكتابة فرصة ليحمى الإنسان نفسه من الضعف وقت الأداء ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يوثق الأمر توثيقاً لا يجعلك أيها العبد خاضعاً لذمتك الإيمانية فقط ، ولكنّك تكون خاضعاً للتوثيق الخارج عن إيمانيتك أيضا ، وذلك يكون بكتاب الدين صغيرا أو كبيرا إلى أجله .

ويقول الحق سبحانه : « ولا تكتموا الشهادة » وهذه الكلمة « ولا تكتموا » إنما هى أداء معبر ، لأن كلمة « شهادة » تعنى الشيء الذى شهدته ، فمادمت قد شهدت شيئاً فهو واقع ، والواقع لا يتغير أبداً ، ولذلك فالإنسان الذى يحكى لك حكاية صدق لا يختلف قوله فى هذه الحكاية حتى وإن رواها ألف مرة ؛ لأنه يستوحى واقعاً .

لكن الكذّاب يستوحى غير واقع ، فيقول كلمة ، وينسى أنه كذب من قبل فيكذب كذبة أخرى ؛ لأنه لا يستوحى واقعاً . فكلمة الشهادة هى عن أمر مشهود واقع ، ومادام الأمر مشهوداً وواقعاً ، فإنه يلح على نفس من يراه أن يخرج ، فإياك أن تكبته بالكتم ؛ لأن كلمة « الكتم » تعنى أن شيئاً يحاول أن يخرج وأنت تحاول كتمانه ، لذلك يقول الحق : « ولا تكتموا الشهادة » فكأن الطبيعة الإيمانية الفطرية تلح على صاحبها لتنطقه بما كان مشهوداً له لأنه واقع .

لذلك يأتى الأمر من الحق : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .
وقد يسأل الإنسان : هل الكتم هنا صفة للقلب أو للإنسان الذى لم يقل الشهادة ؟ .
إن الشاعر يقول :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وساعة يؤكد الله شيئا فهو يأتى بالجارحة التى لها علاقة بهذا الصدد ، فتقول : أنا رأيته بعينى وسمعته بأذنى ، وأعطيته بيدى ومشيت له برجلى . إنّك تذكر الجارحة التى لها دخل فى هذه المسألة .

وعندما يقول الحق : « فإنه آثم قلبه » إنّ كل الجوارح تخضع للقلب : « والله بما تعملون عليم » أى أن كتمك للحقيقة لن يغير من واقع علم الله شيئاً ، وحينها تنتهى مسألة المداينة والتوثيق فيها وظروفها سواء كانت فى الموطن العادى أو فى أثناء السفر فإن الله يضمن للإنسان المتحرك فى الحياة حركة شريفة وطاهرة .

فإن لم تكن هذه فالمصالح تتوقف ، ويصيبها العطل ، فالذى لا يقدر على الحركة فماذا يصنع فى الحياة ؟ . إن قلبه يمتلىء بالحقد على الواجد ، وحين يمتلىء قلبه بالحقد على الواجد فإنه يكره النعمة عنده ، وحين يكره المعدم النعمة عند أخيه الواجد، فالنعمة نفسها تكره أن تذهب إلى من كره النعمة عند أخيه . إنها مسائل قد رتبها الحق سبحانه بعضها متعلق بالبعض الآخر .

إن النعمة تحب المُنعَم عليه ـ بضم الميم وفتح العين ـ أكثر من حب المنعِم عليه للنعمة وتذهب إلى من أنعم الله عليه بها بعشق ، فمن كره النعمة عند منعَم عليه فالنعمة تستعصى عليه حتى كأنها تقول له : لن تنال منى خيراً.وليجربها كل إنسان .

أحبب النعمة عند سواك فستجد نعمة الكل فى خدمتك ، إنك إنْ أحببت النعمة عند غيرك فإنها تأتى إليك لتخدمك . وأيضاً فعلى المؤمن أن يعرف أن بعض النعم ليست وليدة كد وجهد ، قد تكون النعمة مجرد فضل من الله ، يفضل به بعض خلقه ، فحين تكرهها أنت عند المنعم عليه تكون قد اعترضت على قدر الله فى النعمة . وحين تعترض على قدر الله فى النعمة فإن الحق ـ سبحانه ـ لا يجعلك تنتفع منها بشىء .

فإن رأيت قريباً حبس نعمته عن أقاربه فاعلم أنهم يكرهون النعمة عنده . ولو أحبوها لسعت النعمة إليهم . إن المنهج الإلهى يريد أن يجعل الناس كتلة متكافلة متكاملة بحيث إذا رأيت أنا النعمة عندك ونلت منها ، أحببتها عندك ، وحين أحب النعمة عندك فإن العطاء يجىء من هذه النعمة إلىّ ، ولا تجد فارقاً بين واجد ومعدم . إنك لا تجد فارقاً بين واجد ومعدم إلا فى مجتمع لا يؤدى حكم الله فى شىء

لقد قلنا ذلك فى مجال اضطرار الإنسان إلى الربا لأنه لم يجد من يقرضه قرضاً حسناً ، ولم يجد من يؤدى فرض الله له من الزكاة لتسع حاجته فاضطر أن يأخذ بالربا ، وبذلك يدخل المجتمع الربوى فى حرب مع الله ، وهل لأحد جلد على أن يدخل فى حرب مع الله ؟ لا . والمجتمع الربوى يدخل فى حرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم - الربا وقال فى حجة الوداع : « إن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا وإن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله » .

وتلك سمة سمو التشريع السماوى ، إن التشريع البشرى يحمى به صاحبه أقاربه من التقنين ، لكن التشريع السماوى يفرض تطبيقاته أولا على الأقارب . وكان الأسوة فى ذلك سيدنا عمر بن الخطاب ، فساعة يريد عمر أن يضع التشريع فإنه يجمع أهله وأقاربه ويقول :

- سأقوم بعمل كذا وكذا فوالذى نفسى بيده من خالفنى فى شىء من هذا لأجعلنّه نكالاً للمسلمين . ويعلنها عمر أمام الناس ، ولماذا أعلن عمر ذلك ؟ ؛ لأن كثيرا من الناس يجاملون أولياء الأمور ، وقد لا يكون أولياء الأمور على دراية بذلك ؛ فقد نجد واحداً يدخل على قوم على أساس أنه فلان بن فلان ، وبالرعب يقضى هذا الإنسان مصالحه عند الناس برغم أنف الناس . وقد يكون ولى الأمر لا يعرف عن مثل هذا التصرف شيئاً .

لكن حين يعلن ولى الأمر على الناس ولأقاربه أنه لا تفرقة أبداً فيما يقنن وأن القانون سائر على نفسه وعلى أهله فمن استغل اسماً لولى الأمر أو اصطنع شيئاً فالتبعة على من فعل له وعليه ، وبذلك تستقيم الأمور . لكن أن تظهر الحقائق فى استغلال أقارب الحكام بعد انتهاء فترات حكم الحكام ، فهنا نقول : ولماذا لم نعرف كل شىء من البداية ؟ . وأين كانت الحقائق فى وقتها ؟ .

إن الحاكم المسلم عليه أن يعلن للمحكومين أن القوانين إنما تُطبق عليه أولاً وعلى

من يعول . هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع (وربَا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع رِبَانا ، ربَا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله)[١] .

وفى معركة بدر ، أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم أهل بيته ليحاربوا ؛ لأنه لو لم يخرج أحداً من أهل بيته لقال واحد من الكفار : إنه يحمى أهل بيته ، ولو أن أجر الاستشهاد هو الجنة فلماذا يقدم الأباعد ولا يقدم أحبابه للقتال ؟

لكن ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم أقاربه وأحبابه ، فهو العارف من ربه بأمر الشهادة وكيف أنها تقصر على الإنسان متاعب الحياة وتدخله الجنة . هكذا كانت المحاباة فى صدر الإسلام ، إنها محاباة فى الباقى ، ولم تكن كمحاباة الحمقى فى الفانى .

وحين يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ويضرب على أيدى المرابين فهذه هى الحرب التى يجب أن تقوم ، حرب من الله المالك القادر على المحاربة ، أما الضعاف الذين لا يستطيعون القتال فهم لا يحاربون ؛ لأنهم أمام خالقهم وقاهرهم فلا يقدرون على حربه ولذلك يجب أن تتنبه الدولة إلى مثل هذه الأمور وتقنن تقنينا إسلامياً وبعد ذلك إذا لم تتسع الزكاة المفروضة إلى ما يقوم بأود المحتاجين فلتفرض الدولة ما تشاء لتفى بحاجة المحتاجين .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن أوضح الأمر عقيدة فى قوله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، وتقنيناً للعقيدة فى قوله : « لا إكراه فى الدين » ، وحماية للعقيدة بأمره سبحانه المؤمنين أن يقاتلوا لتكون كلمة الله هى العليا ، وبعد ذلك تكلم الحق عن حماية حركة الاقتصاد فى الإنفاق أولاً فى سبيل الله ، والإنفاق على المحتاجين . يقول سبحانه بعد ذلك .

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ

(١) رواه مسلم فى خطبة الوداع فى حجة الوداع .

أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

استهلت الآية بتقديم « لله » على ما فى السماوات وما فى الأرض ، والحق سبحانه يقول : « لله ما فى السماوات وما فى الأرض » ذلك هو الظرف الكائنة فيه المخلوقات ، السماوات والأرض لم يدع أحد أنها له ، لكن قد يوجد فى السماوات أو فى الأرض أشياء يدعى ملكيتها المخلوقون ، فإذا ما نظرنا إلى خيرات الأرض فإننا نجدها مملوكة فى بعض الأحيان لأناس بما ملكهم الله ، والبشر الذين صعدوا إلى السماء وأداروا فى جوها ما أداروا من أقمار صناعية ومراكب فضائية فمن الممكن أن يعلنوا ملكيتهم لهذه الأقمار وتلك المراكب .

ويلفتنا الحق سبحانه هنا بقوله : « لله ما فى السماوات وما فى الأرض » وهو يوضح لنا : إنه إن كان فى ظاهر الأمر أن الله قد أعطى ملكية السببية لخلقه فهو لم يعط هذه الملكية إلا غرضاً يؤخذ منهم ، فإما أن يزولوا عنه فيموتوا ، وإما أن يزول عنهم فيؤخذ منهم عن بيع أو هبة أو غصب أو نهب .

وكلمة « لله » تفيد الاختصاص ، وتفيد القصر ، فكل ما فى الوجود أمره إلى الله ، ولا يدعى أحد بسببية ما آتاه الله أنه يملك شيئاً لماذا ؟ لأن المالك من البشر لا يملك نفسه أن يدوم .

نحن لم نر واحداً لم تنله الأغيار ، ومادامت الأغيار تنال كل إنسان فعلينا أن نعلم أن الله يريد من خلقه أن يتعاطفوا ، وأن يتكاملوا ، ويريد الله من خلقه أن يتعاونوا ، والحق لا يفعل ذلك لأن الأمر خرج من يده ـ والعياذ بالله ـ لا ، إن الله يبلغنا : أنا لى ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأستطيع أن أجعل المسألة دولاً بين الناس .

ولذلك نقول للذين يَصلون إلى المرتبة العالية فى الغنى ، أو الجاه ، أو أى مجال ، لهؤلاء نقول : احذر حين تتم لك النعمة ، لماذا ؟ لأن النعمة إن تمت لك علواً وغنىً وعافيةً وأولاداً ، أنت من الأغيار ، ومادامت قد تمت وصارت إلى النهاية وأنت لاشك من الأغيار ، فإن النعمة تتغير إلى الأقل . فإذا ما صعد إنسان إلى القمة وهو متغير فلا بد له أن ينزل عن هذه القمة ، ولذا يقول الشاعر :

إذا تم شيء بـدا نقصـه ترقب زوالاً إذا قيـل تم

والتاريخ يحمل لنا قصة المرأة العربية التى دخلت على الخليفة وقالت له : أتم الله عليك نعمته . وسمعها الجالسون حول الخليفة ففرحوا ، وأعلنوا سرورهم ، لكن الخليفة قال لهم : والله ما فهمتم ما تقول ، إنها تقول : أتم الله عليك نعمته ، فإنها إن تمت تزول ؛ لأن الأغيار تلاحق الخلق . وهكذا فهم الخليفة مقصد المرأة .

والشاعر يقول :

نفسى التى تملك الأشيـاء ذاهبـة
فكيف آسى على شيء لهـا ذهبا

إن النفس المالكة هى نفسها ذاهبة ؛ فكيف يحزن على شيء له ضاع منه ؟

والحق سبحانه يطلب منا أن نكون دائماً على ذكر من قضية واضحة هى : أن الكون كله لله ، والبشر جميعا بذواتهم ونفوسهم وما ظهر منها وما بطن لا يخفى على الله ، والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تم تسجيله علينا .

إن كل إنسان يقرأ كتابه بنفسه .. فسبحانه يقول :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

والحساب معناه أن للإنسان رصيدا ، وعليه أيضا رصيد . والحق سبحانه وتعالى يفسر لنا (له وعليه) بالميزان كما نعرف فى موازين الأشياء عندنا وهو سبحانه يقول :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

إن حساب الحق دقيق عادل ، فالذين ثقلت كفة أعمالهم الحسنة هم الذين يفوزون بالفردوس ، والذين باعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تثقل كفة أعمالهم السيئة ، فصاروا من أصحاب النار .

إذن نحن أمام نوعين من البشر ، هؤلاء الذين ثقلت كفة الخير فى ميزان الحساب ، وهؤلاء الذين ثقلت كفة السيئات والشرور فى ميزان الحساب . فماذا عن الذين تساوت الكفتان فى أعمالهم . استوت حسناتهم مع سيئاتهم ؟ إنهم أصحاب الأعراف ، الذين ينالون المغفرة من الله ؛ لأن مغفرة الله وهو الرحمن الرحيم قد سبقت غضبه جل وعلا . ولو لم يجيء أمر أصحاب الأعراف فى القرآن لقال واحد : لقد قال الله لنا خبر الذين ثقلت موازينهم ، وأخبار الذين خفت موازين الخير عندهم ، ولم يقل لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم .

لكن الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر وأوضح لنا أن المغفرة تسبق الغضب عنده ، لذلك فالحساب لا يكتفى الحق فيه بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق ، لذلك يطمئننا الحق سبحانه فيقول :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الحق يطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده فى كفة الميزان ، ويطمئننا أيضا على أنه ـ سبحانه ـ سيجازينا على ما أصابنا من شر الأشرار وأننا سنأخذ من حسناتهم

لتضاف إلى ميزاننا ، إذن فالطمأنينة جاءت من طرفين : طمأننا الحق على ما فعلناه من خير ، فلا يُنسى أنه يدخل فى حسابنا ، وطمأننا أيضا على ما أصابنا من شر الأشرار ، وسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا .

ونحن نجد فى الكون كثيراً من الناس قد يحبهم الله لخصلة من خصال الخير فيهم ، وقد تكون هذه الخصلة الخيِّرة خفيّة فلا يراها أحد ، لكن الله الذى لا تخفى عليه خافية يرى هذه الخصلة فى الإنسان ، ويحبه الله من أجلها ، ويرى الحق أن حسنات هذا الرجل قليلة ، فيجعل بعض الخلق يصيبون هذا الرجل بشرورهم وسيئاتهم حتى يأخذ من حسنات هؤلاء ليزيد فى حسنات هذا الرجل .

ومعنى « تبدوا ما فى أنفسكم » أى تصيروا الوجدانيات إلى نزوعيات عملية ، ولكن هل معنى « أو تخفوه » هو ألا تصيروا الوجدانيات النفسية إلى نزوعيات عملية ؟ لا ، فليس لكل شىء نزوع عملى ، ومثال ذلك الحب ؛ إن الإنسان قد يحب ، ولا يجد القدرة على النزوع ليعلن بهذا النزوع أنه محترق فى حبه ، وكذلك الذى يحقد قد لا يجد القدرة على النزوع ليعلن بهذا النزوع عن حقده ، إذن فهناك أعمال تستقر فى القلوب ، فهل يؤاخذ الله بما استقر فى النفوس ؟

إن هذه المسألة تحتاج إلى دقة بالغة ؛ لأننا وجدنا بعضا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقفوا فيها موقفا أبكى بعضهم ، هذا عبدالله بن عمر رضى الله عنهما حينما سمع هذه الآية قال : لئن آخذنا الله على ما أخفينا فى نفوسنا لنهلكن . وبكى حتى سُمع نشيجه بالبكاء . وبلغ ذلك الأمر ابن عباس فقال : يرحم الله أبا عبدالرحمن لقد وجد إخوانه المسلمون مثلما وجد من هذه الآية . فأنزل الله بعدها « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » إلى آخر السورة .

ولنعلم أن نوازع النفس كثيرة ؛ فهناك شىء اسمه « هاجس » وهناك شىء آخر اسمه « خاطر » وهناك ما يسمى « حديث نفس » ، وهناك « هم » وهناك « عزم » ، إنها خمس حالات ، والأربع الأولى من هذه الحالات ليس فيها شىء ، إنما الأخيرة التى يكون فيها القصد واضحا يجب أن نتنبه لها ولنتناول كل حالة بالتفصيل .

إن الهاجس هو الخطرة التى تخطر دفعة واحدة ، أما الخاطر فهو يخطر .. أى يسير فى النفس قليلا ، وأما حديث النفس فإن النفس تظل تتردد فيه ، وأما الهم فهو استجماع الوسائل ، وسؤال النفس عن كل الوسائل التى ينفذ بها الإنسان رغباته ، أما العزم (القصد) فهو الوصول إلى النهاية والبدء فى تنفيذ الأمر.

والقصد هو الذى يُعنى به قوله تعالى : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » وقد وجدنا كثيرا من العلماء قد وقفوا عند هذا القول وتساءل بعض من العلماء : هل الآية التى جاءت بعد ذلك والتى يقول فيها : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » هل هى نسخ للآية السابقة عليها ؟

ولكن نحن نعرف أن الآية هى خبر ، والأخبار لا تنسخ إنما الأحكام هى التى يتم نسخها ، وعلى ذلك يكون القصد والعزم على تنفيذ الأمر هو المعنى بقوله الحق : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » فهذا هو الذى يحاسبنا الله عليه .

وعندما يقول الحق سبحانه : « فيغفر لمن يشاء » فمن هم ؟ لقد بين الله من يشاء المغفرة لهم ، إنهم الذين تابوا ، وهم الذين أنابوا إلى الله ، هم الذين قال فيهم الحق :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠ ﴾

(سورة الفرقان)

وتبديل المغفرة حسنة مسألة يجب أن يقف عندها الإنسان المكلف من الله وقفة ليرى فضل الله ، لأن الذى صنع سيئة ثم آلمته ، فكما آلمته السيئة التى ارتكبها وحزن منها ، فإن الله يكتب له حسنة . ولكن الذى لم يصنع سيئة لا تفزعه هذه ، وبعض العارفين يقول : رُبَّ معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا .

إنك لتجد الخير الشائع فى الوجود كله ربما كان من أصحاب الإسراف على أنفسهم فى شىء ما قد اقترفوه وتابوا عنه ولكنه لا يزال يؤرقهم .

يكون الواحد منهم قويا في كل شيء ، إلا أنه ضعيف أمام مسألة واحدة ، وضعفه أمام هذه المسألة الواحدة جعله يعصى الله بها وهو يحاول جاهداً في النواحي التي ليس ضعيفاً فيها أن يزيد كثيراً في حسناته ، حتى يمحو ويذهب الله هذه بهذه . فالخير الشائع في الوجود ربما كان من أصحاب السيئات الذين أسرفوا على أنفسهم في ناحية من النواحي ، فيشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم متجهين إلى نواحٍ من الخير قائلين : ربما هذه تحمل تلك .

لكن الذي يظل رتيباً هكذا لا تلذعه معصية ربما تظل المسائل فاترة في نفسه . ولذلك يجب أن ننظر إلى الذين أسرفوا على أنفسهم لا في زاوية واحدة ، ولكن في زوايا متعددة ، ونتأدب أمامهم وندعو الله أن يعفيهم مما نعرفه عنهم ، وأن يبارك لهم فيما قدموه ؛ ليزيل الله عنهم أوزار ما فعلوا .

وبعض العلماء يرى في قوله الحق : « فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » أن الله قد جعل المغفرة أمراً متعلقاً بالعابد لله ، فإن شئت أن يغفر الله لك فأكثر من الحسنات حتى يبدل الله سيئاتك إلى حسنات . وإن شئت أن تعذب ـ وهذا أمر لا يشاؤه أحد ـ فلا تصنع الحسنات .

وهذه المسألة تجعلنا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا الإيمان به فإنه يُملكنا الزمام . وبمجرد إيماننا به فنحن نتلقى منه زمام الاختيار ، والدليل واضح في الحديث القدسي : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله ـ عز وجل ـ :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني . إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأهم خيرٍ منهم وان تقرب مني شبرا تقربتُ إليه ذراعا ، وإن تقرب إليّ ذراعا ، تقربت منه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلَة »(١) .

إذن فبمجرد إيمانك ملكك الله الزمام ، فإن أردت أن يتقرب الله إليك ذراعا ،

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الذكر .

فتقرب أنت إليه شبرا ، فالزمام فى يدك . وإن شئت أن يتقرب الله منك باعا ، فتقرب أنت ذراعا . وإن شئت أنت أن يأتى ربك إليك مهرولاً - جرياً - فأت إليه مشيا . فبمجرد أن يراك الله وأنت تقبل وتتجه إليه ، كأنه يقول لك : لا .. استرح أنت ، أنا الذى آتى إليك .

ولذلك قلنا من قبل فى مسألة الصلاة حين تؤمن - أيها العبد - بالله وبعد ذلك ينادى المؤذن للصلاة ، فتذهب أنت إلى الصلاة ، صحيح أنت تذهب إلى الصلاة المفروضة ، لكن هل منعك الله أن تقف بين يديه فى أية لحظة ؟ . لقد طلب الله منك أن تحضر بين يديه خمس مرات فى اليوم ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً لك - أيها المؤمن - فالله لا يمل حتى يمل العبد .

والإنسان فى حياته العادية - ولله المثل الأعلى - إذا أراد أن يقابل عظيماً من العظماء فإن الإنسان يطلب الميعاد ، فإما أن يقبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد أو يرفض . وإذا قبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد ، فإن العظيم من البشر يحدد الزمن ، ويحدد المكان ، وربما طلب العظيم من البشر أن يعرف سبب وموضوع المقابلة . لكن الله يترك الباب مفتوحاً أمام العبد المؤمن ، يلقى الله عبده فى أى شىء ، وفى أى وقت ، وفى أى مكان ، وفى أى زمان .

حسب نفسى عزاً بأنّى عبد يحتفى بى بلا مواعيد ربُّ
هو فى قدسه الأعز ولكن أنا ألقى متى وأين أحبُّ

الزمام إذن فى يد من ؟ . إن الزمام فى يد العبد المؤمن . لذلك فالذين قالوا فى فهم « فيغفر لمن يشاء » إن البشر فى أيديهم أمر المغفرة لهم ، فإن شاء البشر أن يغفر الله لهم فإنهم يفعلون أسباب المغفرة ، ويتوبون إلى الله ، ويكثرون من الحسنات ، ومن يريد أن يتعذب فليظل سادراً فى غيه فى فعل السيئات . ثم بعد ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ